الفصل الثالث

المصلح الاجتماعى

فى عام ١٩٢٢ تخلى الشيخ طنطاوى عن التدريس لبلوغه السن القانونية للمعاش ، ومنذ ذلك الوقت انقطع للتأليف ، وأخذ يواصل الكتابة بأسلوبه الحلو الرزين الرصين ، ويرسل فى أبحاثه بنظراته الفاحصة العميقة ، ويفيض من علمه المتمكن الغزير ، فصنّف الكتب الكثيرة التى كان أشهرها « الجواهر » وقد أفردنا لمؤلفاته فصلاً خاصا .

كما أسس « جماعة الأخوة الإسلامية » وكانت تجمع طلاب المسلمين من الشرق الأوسط ومن الشرق الأقصى حين جاءوا إلى مصر ليتعلموا فيها ، وقد أضعفت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) نشاط هذه الجمعية ، وكانت قائمة فى عام ١٩٥٠ فى قبة الغورى أمام المسجد الذى يحمل هذا الاسم بجوار الأزهر ، وكان رئيسها فى عام ١٩٥٠ المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام عميد كلية الآداب وقت ذاك .

وكان الشيخ طنطاوى عضواً بجمعية البر والإحسان ، وعضواً فى « جمعية الشبان المسلمين » التى كان يرى فيها مثلاً طيباً للحركة الإسلامية فى الشبيبة الناهضة ، كما كان عضواً بارزاً بدائرة القاهرة الروحية . وتولى رياسة جمعية المواساة الإسلامية التى بدأت على يديه وكان أحد مؤسسيها .

لقد كان الشيخ طنطاوى عالماً متمكناً بطبيعة الأرض وبحياة أهل الأرض ، وكان مجاهداً صادقا مع الرعيل الأول من المجاهدين الصادقين فى الصف الأول .

لم تشتهر فى الشرق شخصية من المصريين كما اشتهر الشيخ طنطاوى ؛ فقد كان السائح الشرقى إذا رحل إلى مصر يسأل عن « الشيخ طنطاوى » فى رحلته ، كما يسأل الإنجليز أو الأوربيون أو الأمريكيون عن « الأهرام » . فهو معروف فى الهند وبلاد فارس والصين وإندونيسيا وفى بلاد العرب وتركستان .

قالت مجلة « صحيفة دار العلوم » :

« إن التركستانيين لما استقلوا استقلالاً تاما وأقاموا جمهورية إسلامية وأنشأوا المدارس والجامعات - اتفقوا على أن يسموها باسم الشيخ طنطاوى جوهرى ، فسموها « جامعة طنطاوية » و « مدارس جوهرية » وألف زعماؤهم وعلماؤهم كتباً فى لغتهم للتدريس فى هذه الجامعات والمدارس باسم المترجم مثل كتاب « القصائد الجوهرية » ، لأنه فى عقيدتهم حجة الشرق وفيلسوف الإسلام » .

ويقول الأستاذ أحمد عطية الله - وهو أحد معاصريه - فى مقال له عن الشيخ طنطاوى بمجلة « المصور » بتاريخ ٢٤ من نوفمبر عام ١٩٧٢ ما يلى :

« . . ومن ناحية أخرى كان الشيخ طنطاوى يتابع ما ينشره فى الصحف والمجلات من اكتشافات علمية ارتبطت فى ذهنه والتطور الحضارى للغرب ؛ لهذا نراه يقرن بين الجمهور والتخلف من ناحية وبين عزوف المسلمين عن العلوم الحديثة ، وقاد دعوة إلى الإصلاح الاجتماعى قوامها نشر هذه العلوم مؤيداً قوله بالأدلة والأمثلة التى لا حصر لها بأنه لا جفوة بين القرآن وهو مصدر العقيدة الأول وبين هذه العلوم ، بل إنه أكد القول بأن القرآن يحث المسلم على طلب العلم بمعناه الشامل : وطريق ذلك فى نظره نشر المدارس وإنشاء الجامعات الحديثة ؛ وأجمل هذه الدعوة قصيدة له مازلت أذكر بعض أبياتها منذ المرحلة الابتدائية يقول فيها :

وابنوا المدارس فى القرى
والجامعات كما يُرى . . .
فى كمبردج ، ولندرا .
فزمانها قد حانا . .

وتبلورت هذه الدراسات الموسوعية فى نوع من الفلسفة الاجتماعية ، وأصبح داعيا إلى نظام دولى يقوم على السلام والإخاء منددا باستخدام الدول العظمى للقوة فى إقرار سياستها ، وضمن ذلك عدة كتب منها « نظام العالم والأمم » ، و « النظام والإسلام » و « نهضة الأمة وحياتها » ؛ لهذا كان يرى نفسه فى أخريات حياته أحد دعاة السلام العالمى . . »

ولعل كل ذلك لم يضع الشيخ طنطاوى موضعه المرموق فى مصر كما هو الشأن معه فى أمم الشرق والغرب ، وقد كفانا الشيخ مئونة هذا بقوله : « إليك اللهم أشكو جور الحساد وغيظهم : يقولون إذا خلوا مع الموظفين من أمة الإنجليز : إن هذا إلاّ متعصب للدين ، فإذا تركتموه وشأنه أثار الثائرات وشن الغارات ! ويقولون للموظفين المصريين : ألا إنما هو خارج مؤوِّل فى الدين ؛ وإذا لقوا فريقا

آخر قالوا : إنه خلط العلم مع الدين ومزجهما خبط ضائع ! اللهم ، إنى سأعمل بما قلت لنبيك ﷺ : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين » .

فى سبيل العلم والدين :

تحت هذا العنوان نشرت جريدة « الأخبار » التى كان يديرها ويرأس تحريرها المرحوم الأستاذ أمين الرافعى بعددها الصادر فى ٨ من سبتمبر عام ١٩٢٤ نداء هذا نصه :

« نداء . . من حضرة صاحب الفضيلة الشيخ طنطاوى جوهرى إلى الملوك والسادة الأشراف والأمراء والأعيان وكل ذى حمية دينية إسلامية ببلاد الملايو وسنغافورة وجزائر الهند الشرقية وفولوفينا يستنهض فيه الهمم العلية لإحياء العلوم الدينية :

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله.(أما بعد) فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلاّ هو ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وآله . . ثم إنى أذكركم بما تعلمون أن هذا الزمان اتجهت أنظار الأمم فيه إلى العلوم والمعارف وتشييد المدارس ، وإنارة القلوب بالأخلاق والآداب . وإن الأمم الشرقية الإسلامية اليوم أحوج إلى ذلكم من كل الأمم .

ولما كانت بلادنا المصرية كعبة أنظارهم ، ومرمى آمالهم ، ومنتهى مقاصدهم لشرفها باللغة العربية والجامعة الأزهرية والعلوم الدينية - شرّفنا فى هذه الأيام ضيف مصر السيد النبيل حسن بن العطاس من مملكة جهور بهادر إحدى ممالككم العامرة ، ومعه حضرة عبد العزيز أفندى الشيمى المدرس فى أقطاركم ، وتحدث معنا فى أمر المعارف الدينية ونشرها فى أقطاركم المباركة الطيبة ، وطلب أن أسافر معه لبث الفكرة وجمع الكلمة ، فاستشرت طائفة من أولى العلم والفضل ففكروا مليا ، وأجمعوا أمرهم بينهم وقرروا ما يأتى :

أولاً : لا رقى لأقطاركم المباركة فى الدين إلاّ بإنشاء المدارس فى البلاد نفسها .

ثانياً : يجب أن يكون المعلمون من أبنائها ؛ لأن المدرسين المصريين وغيرهم يحتاجون إلى نفقات طائلة لبعد الشقة وطول السفر والغربة عن الأوطان .

ثالثاً : يجب أن يبدأ أولاً بتعليم طائفة من أبناء بلادكم العلوم المختلفة فى مصر ليكونوا معلمين فى المدارس التى تنشئونها فيما بعد إن شاء الله .

رابعاً : يجب أن يُبتدأ بإصلاح أحوال التلاميذ الذين هم الآن بالجامع الأزهر تشجيعا لهم

واستنهاضا لهمم غيرهم من أبناء البلاد .

خامساً : كلفت اللجنة المشار إليها كاتب هذه السطور أن يقابل أولى الأمر مع السيد حسن بن أحمد العطاس صاحب المشروع لتنفيذ الفكرة فى الأزهر أولاً بدراسة أحوال هؤلاء الطلاب ، فلبيت طلبهم وتوجهت مع السيد إلى صاحب الدولة (سعد باشا زغلول) ، ونائبه صاحب الدولة (محمد باشا سعيد) ، وقد وعد كل منهما بالمساعدة ؛ ومن هناك صدر الأمر لصاحب الفضيلة شيخ الإسلام بامتحان الطلاب ، فشكلت لجنة تحت رياسة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المجيد اللبان العضو بمجلس الشيوخ ومن كبار العلماء بالأزهر لامتحانهم ومعرفة أحوالهم ، فسرَّها حال وساءتها أحوال ، وقد نظرنا فى أمرهم من عدة وجوه لابد من تكميلها وهى :

أولاً : إن التلاميذ لا يحسنون النطق بالعربية ، وهى لغة العلم بالأزهر الشريف إلاّ القليل .

ثانيا : إن مساكنهم التى يؤجرونها غير صحية ، وأحوالهم المعيشية غير مرضية .

ثالثا : إن المال ليس متوافراً لديهم كما هو عند طلبة الترك والشام وبلاد المغرب ؛ فهؤلاء جميعا غرباء مثلهم ، ولكن لهم أوقاف خاصة بهم ، فهم فى عيش أحسن وزى أكمل على كل حال .

رابعاً : رأت الجماعة أن هذا إنما نشأ من اقتراب هذه الأمم من مصر وابتعاد أمة الملايو وطول الشقة فى غابر الأزمان ، أما الآن فقد وجدت المواصلات بين الأمم ، فيجب العناية بهؤلاء الطلاب .

وعلى ذلك تقرر أن يعتنى بتعليم المستجدين من هؤلاء ويُراعَوْا رعاية خاصة ، ويجعل لهم نظام خاص عند ابتداء حضورهم ، ويطلب من فضيلة شيخ الإسلام العناية بذلك وهو أب لهم رحيم . ثم طلبت اللجنة – وأعضاؤها بترتيب حروف المعجم حضرات : حسن بك أحمد من الأعيان ومن كبار أولى العلم ، والأستاذ الشيخ عليش ، وعبد العزيز أفندى الشيمى ، والأستاذ الشيخ محمد نور المدرسون بالمدارس ؛ والسيد مصطفى البابى الحلبى الكتبى المشهور ، ونور الدين بك مصطفى من الأعيان وكبار أولى العلم – طلبت من كاتب هذه السطور أن يدون ذلك ويرسل خطاباً بمضمونه إلى حضراتكم ملتمساً جمع المال اللازم ، وأن تشكل لجنة عندكم من الملوك والوزراء والأعيان ويكون لها أمين صندوق ينتخب من بينهم . وهذه اللجنة مهمتها جمع المال والتبرعات باكتتاب دائم لتعليم العلوم الدينية حتى إذا ما اجتمع عند الجمعية ما يسد الحاجة فهنالك يحسن أن تخابر اللجنة المذكورة كاتب هذه السطور ، وترسل من تراه لتريه اللجنة ما هو واجب من شراء عقار ووقفه على الطلاب وغير ذلك ، ثم يستشار الإخوان هنا ، ويقررون ما يجب عمله فى مصلحة الطلبة الأزهريين من مسكن وملبس وتعليم وتوجيههم إلى المقاصد التى يصلحون لها ، وتكون اللجنة هنا بمصر كمستشار يؤدى وظيفة النصح التى تجب على جميع المسلمين . وهذا العمل هو المقصود من سفرى ، فليؤجل

ذلك السفر لفرصة أخرى إذا تمت الأمور .

وهذه اللجنة بمصر فوق التعليم الدينى تقوم بكل ما يلزم من النصح لكل طالب يريد الطب أو الهندسة أو القضاء الشرعى أو علم الزراعة أو علم التجارة أو غير ذلك من العلوم العصرية خلاف العلوم الدينية .

ثم كلفتنى اللجنة أن أنشر بيانا أستثير فيه الحمية وأبعث الغيرة فى نفوس من عندكم من إخواننا المسلمين فلبيت طلبهم وهأنذا أوجه خطابى للجميع . وقبل أن أقول كلمتى فى هذا الشأن أذكر أن جلالة ملك مصر فؤاد الأول قد أصدر أمره فى هذا العام بأن يبنى مسكن صحى لسائر الغرباء . وقد عهد الأمر فيه إلى صاحب الفضيلة الشيخ حسين وإلى سكرتير الجامع الأزهر ونحن لذلك مرتقبون .

وأيضا أخبرنى أستاذنا العلامة إسماعيل بك رأفت أن هناك وقفا للجاويين وقفته السيدة رمز عاشق هانم من معتوقات المرحوم إسماعيل باشا من الأسرة العلوية وذلك من نحو عشرين سنة وهو شاهد عليه هو ومحسن نورى بك مدير الدفترخانة . والبحث جار عن هذه الأطيان وإعدادها لأهل الملايو وأهل جزائر الهند الشرقيين الطالبين بالأزهر .

ولما رأى ضيف مصر الفاضل العطاس حال هؤلاء الطلاب استأجر منزلاً على نفقته بمعرفة السيد مصطفى أفندى البابى الحلبى حتى يتم النظام المستقبل الذى أعدّه لهؤلاء الطلاب .

* * *

ظهر العدد ٣٤٣ من جريدة « مصر الفتاة » الصادر فى ١٥ من نوفمبر عام ١٩٠٩ مصدراً بمقالة شغلت الصفحة الأولى وجزءاً كبيراً من الصفحة الثانية . وكان عنوان تلك المقالة :

مذهب داروين عند العرب
المقتطف والمفكر المصرى الكبير

« للمفكر المصرى الكبير ، والعالم العصرى العامل ، الشيخ طنطاوى جوهرى مباحث فكرية دقيقة فى علوم لم يشتغل بها إلى الآن غير الغربيين . ومن بنات مباحثه الجليلة كتابه الذى سماه « نظام العالم والأمم » وانتشر فى أنحاء الممالك الإسلامية الدانية والقاصية ، فكان موضع إعجاب القارئين من علماء المسلمين وطلابهم الكثيرين » .

« وقد اطلع أحد المشتغلين بالبحث والاستنتاج على هذا الكتاب الثمين فعنَّ له سؤال بعث به إلى أصحاب « المقطم » ليجيبوا عنه أو ليوجهوه إلى مؤلف الكتاب حتى إذا اطلع عليه أجاب بما عرف فيه من قدرة واطلاع .

وقد تصدى أصحاب « المقطم » للرد على السؤال . وقرأ الأستاذ فى مجلة « المقتطف » السؤال والجواب ، فرأى من الواجب عليه أن يكتب مقالة يميط بها عن الحقيقة الحجاب ، وبعث بمقاله إلى أصحاب « المقتطف » عن طريق أناس من ذوى الجاه ، فوعدوهم وعداً حسنا ، ولما أن مضى الميعاد وظهر « المقتطف » فى الشهر الحالى وجده خاليا مما كتب مخالفاً للوعد . فلم يجد الأستاذ مندوحة عن بيان الحقيقة الناصعة بيضاء للناظرين . فأرسل إلينا بصورة مما بعث به إلى الدكاترة ، وطلب منا نشره ، ونحن مع أسفنا لظهور حضرات أصحاب « المقتطف » و « المقطم » بمظهر الناكثين للعهود نجيب حضرته إلى طلبه بكل ارتياح ونقول له : لا يحزنك يا فيلسوف مصر ما وجدت من دكاترة سوريا من المراوغة والمطل وخلف الوعد ؛ فإن من راوغ أمة كاملة ما ينيف عن ربع قرن لا يعز عليهم أن يراوغوا واحداً من كبار هذه الأمة ، وإن كان من كبار علمائها ومفكريها . وهذا نص المقالة التى أبى حضراتهم نشرها بعد أن وعدوا به . . . » .

ثم أخذت جريدة « مصر الفتاة » فى نشر المقال . ولما كان المقال طويلا ويمكن أن يكون رسالة فى مذهب داروين أو دائرة الوجود فى الشرق والغرب . ولما كان لهذا المقال من أهمية كبيرة رأينا أن ننشره بحذافيره فى الجزء الثانى من الكتاب فى الفصل الخاص بـ « مقالاته المتناثرة » مصدراً بخطاب الشيخ طنطاوى لأصحاب مجلة « المقتطف » .